الفصل الأول :

العمريـــة ودوافـع الكتابـــة

obeikandl.com

obeikandl.com

العُمريةُ ودوافع الكتابة

حينما نود الكتابة عن شخصية ما ، تكون هناك دوافع دفعتْ أو حركت الرغبة فى الكتابة ، تلك الدوافع إما أن تكون متعلقة بالشخصية المكتوب عنها أو متعلقة بشخصية الكاتب ، أو بالظروف الحاضرة التى من شأنها استدعاء سيرة الشخصية لقضاء وطرٍ ما .

✍ أما فيما يخص الشخصية المكتوب عنها ، فالدافع أن يزاح عنها غبنٌ وقعَ عليها كأن تكون قد ظُلمتْ من أبناءِ زمنها وجيلها ولم تنلْ ما تستحقه من تقديرٍ وعرفانٍ ، نظير ما قدمتْه للإنسانية . وكثيرة تلك الشخصيات التى ظُلِمْت بسبب عدم الاحتكام إلى المعايير الموضوعية ، وكان سيدُ الموقف آنذاك - التعصب أو الهوى أو الغيرة والحقد ، وتتواتر الأجيالُ بعد ذلك على اتخاذ هذا الموقف الظالم من الشخصية .

وتواترُ الأجيالِ على الظلم أخطرُ ما يكون ، لأنه إذا كان الذين عاصروا تلك الشخصية قد أوقعوا ظلمًا وهضمًا ، فقد فعلوا ذلك ، وفعلهم يستند إلى داوفع وسواء كانت تلك الدوافع مبررة أو غير مبررة ، تحتكم إلى العقل أو تندفع مع الهوى فهى فى نهاية الأمر دوافع دفعتهم إلى اتخاذ هذا الموقف المتجنى من الشخصية أما الأجيال التالية فليس هناك من دافع لها سوى الكسل العقلى وفتور الهمة وخراب الذمة ، واعتمادهم وتواكلهم على أقوال السابقين بدون فحص أو تمحيص.ويشتركون فى الوزر مرتين؛مرة لأنهم رددوا ما كان يردده السابقون كالببغاوات العجماوات ، ومرة ثانية أنهم ظَلموا ويظل الأمر على هذا ، إلى أن يقيض اللّٰه شخصًا ينصف المظلوم ، ويكشف الغبن ، وينسب الفضل إلى أهله .

- أما من ناحية الكاتب نفسه ، فقد يدفعه إلى الكتابة حبُّه للشخصية لأنها تجسم وتحقق المثل العليا التى ينشدها هو وأبناء جيله لاسيما وإن عزَّ وجود مثل تلك الشخصية فى الوقت الراهن ، فما عجز عن التماسه فى الحاضر قد يجده فى الماضى .
- أما من ناحية الظروف الحاضرة التى استدعتْ سيرةَ الشخصية فقد تنزلق أمة أو جماعة ما إلى خطأ ، ويضيعُ منها السبيلُ وتضلُّ ، ولا تدرى من أين وإلى أين الخروج من هذا التيه والضلال وتختلطُ فى نظرها الأمورُ وتتشابك ويلتبسُ الحقُّ بالباطلِ . حينئذٍ تشتدُّ حاجةُ والجماعةِ إلى من يخرجُها من هذا المأزقِ إلى من يلقى إليها طوق النجاة، إلى من يضىء لها ليلها المظلمَ المدلهمّ ، إلى من يهديها سبل الرشاد والسلام .
- تلك الظروفِ الحرجة التى تحيط بالأمةِ وتحدقُ بها ، تستدعى الشخصية التاريخية بقوة وإلحاح ؛ لتقتبسَ الأمةُ من أنوارها الهاديةِ ، وتتعلم من نظرتِها الثاقبةِ ، وتسيرَ على هدى من فكرِها العميقِ .

وقد يسخرُ ساخرٌ من منطقى هذا ، قائلا :

ما شأن هذا الرجل الذى يبحث فى القبور عمن يخرجُ أمتَه من مأزقِها أو يتصفح سجلات وكتب التاريخ التى علاها الغبار ، وبليتْ صفحاتُها ، وذابتْ حروفُها ، واتخذتْها العتةُ طعامًا وزادًا لها ... فما صلح وأصلح الماضى قدْ لا يصلحُ ويعجزُ عن إصلاح الحاضر فقد تغيرتْ وتطورتْ الإنسانيةُ بشكلٍ مرعبٍ ورهيبٍ وماذا ستفعلُ تلك الشخصيةُ أو شخصياتُ وحكماءُ وعباقرةُ العالم القديم فيما جَدَّ من مشكلات ومآزق تعجزُ شخصياتُ العالم الحديث بما أوتوا من علم وخبرة ودربة عن حلها ؟؟! .

وأنا أتفق معه فيما قاله ، وأؤيده ، بل وأدعو إليه .

ولكن من قال إن الإنسانية لم تتقدم وتتطور بدون النظر إلى ماضيها والاستفادة من تلك التجارب والمواقف التى تعرض لها السابقون ؟

إن الذى صنع الحضارة الإنسانية ، وهذا التقدم المذهل تلك السلسلةُ المترابطة الحلقات من تراكم الخبرات ، إن الإنسانية كانت - ودائما - تستمد من الماضى زادًا وقوة لتنطلقَ إلى المستقبل .

إذن للتاريخ والتراث وظيفةٌ هامةٌ ، وتتوقف نجاح تلك الوظيفة علينا نحن من خلال نظرتنا له ، فإذا نظرنا إليه كمحتوى ملىء بالخبرات والمواقف التى قد تُستثمر لمعالجة وحل مشكلات الحاضر فقد اكتسب أهمية قصوى" إن المحتوى التراثى لا يعنى فقط تحقيقه وحفظه ، بل يعنى - قبل كل شىء - استخلاص المعرفة الكامنة فيه وتحديد مغزاها بالنسبة إلى حاضرنا ، وكما يقول يوسف زيدان (إن الوجود الإنسانى هو عبور دائم من الماضى إلى المستقبل ، وإن كان هناك خلل فى الوعى بالماضى فلن يكون العبور إلى المستقبل إلا خبط عشواء) "[1] .

على هذا فأى دعوى تدعو إلى بتر الصلة بين الحاضر والماضى بحجة الانطلاق للمستقبل هى دعوى مغرضة ، أصحابها لا يريدون الخير لتلك الأمة ، ويريدون الضلال للإنسانية.

والتاريخ يشتملُ على عنصرين ، الأحداث والشخصيات ، وأهمها الشخصيات لأن الشخصية هى التى تحرك وتتحكم فى دفة الأحداث ، فالتاريخ صنعته إراداتٌ وهو فى نهاية الأمر صراعٌ وصدامٌ بين تلك الإراداتِ ، وأكثرُ الشخصيات تأثيرا فى التاريخ تلك

١- الفجوة الرقمية - تأليف : د/ نبيل على ونادية حجازى - صفحة (١٠٨) - عالم المعرفة - العدد (٣١٨).

الشخصية التى أوتيتْ قدرًا من مضاء وصلابة الإرادة ، وطهارة النفس ورقى وسمو الهدف والمقصد " التاريخ العام - تاريخ ما أحدث الإنسان فى هذا العالم- إنما هو تاريخ من ظهر فى الدنيا من العظماء ، فهم الأئمة ، وهو المكيفون للأمور وهم الأسوة والقدوة وهم المبدعون لكل ما وفق إليه أهل الدنيا وكل ما بلغه العالم وكل ما تراه قائما فى هذا الوجود كاملا متقنًا ، فاعلم أنه نتيجة أفكار أولئك العظماء الذين اصطفاهم الله وأرسلهم إلى الناس ليؤدى كل ما ناطته به القدرة الإلهية من الخير. فروح تاريخ العالم إنما هو تاريخ العالم أولئك الفحول ، وظنى أنه مبحث لن يسعه هذا المقام " [1] .

وبالنسبة لعمر بن الخطاب فالأمور الثلاثة متوافرة :

فدافع الكتابة يتعلق به ، لأن ما كتب عنه - وهو كثير - لا يتناسب مع ما قدمه للأمة الإسلامية خاصة ، وللإنسانية عامة ، ولم تُستخلَص العبرة والحكمة من مواقفه- وإن تم استخلاص النذر اليسير - ولم تُبلور كل مواقفه وتصرفاته ، ولم يُسبر غور فكره - وهو عميق - لنخرج من خلال هذا برؤية شاملة أو بمبدأ فلسفى يجمع المتفرقات ، ويلملم الشظايا ، فهذا المبدأ من شأنه أن يفسر كأوضح ما يكون التفسير، ويؤول كأشمل ما يكون التأويل تصرفات ودوافع الشخصية، وفى دراستنا عن الشخصيات ينبغى لنا أن نبحث أو نستخلص (بؤرة)، أو (نواة) تتجمع فيها كل ما يجعل شخصية ما تختلف عن ملايين الشخصيات ، ما يخلق لها التميز والتفرد ، ما يجعل لها تأثيرا قويًّا فى تغيير مجريات الأحداث ، ما يشكل من الشخصية نوعًا من (الحتمية) لفرض إرادتها ، وتأصيل وتعميق فكرها ، وحمل من حولها على تبنى أطر منطقها عن اقتناع وفهم .

١- الأبطال - تأليف : توماس كارلايل - ترجمة / محمد السباعى - صفحة (٧).

openkanal.com

وأهمية استخلاص هذا المبدأ ، وما يستند إليه من فكر ما ستنتفع وتنفع الأجيال اللاحقة ، لأنه بمثابة (روشتة) طبية ، فيها توصيف للمرض وللدواء وطريقة تعاطيه ، وما ينتج عنه من فوائد ، وما قد يظهر له من أعراض جانبية

وفيما يتعلق بالشخصية ، فأنا أشعر - وأظن أن الكثيرين يوافقوننى بشعور فريد من الإعجاب والإكبار ، ولا أخفى أن هذا الشعور فى بعض الأحيان يجعلنى أرتعد ، ولا أظن أنى فى حاجة أن أزيد على ذلك .

وفيما يتعلق بالأحداث الحاضرة والراهنة التى استدعتْ تلك الشخصية فأظن أن الحالة التى تعيشها الأمة تدل على أننا ابتعدنا عن الصلاح والرشاد وموقعنا بين الأمم الآن يدل على أننا ضللنا ضلالا بعيدًا ، وأننا ضعنا وأضعنا الكثير الذى من شأنه أن يعصمنا من الخطأ والزلل ، وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، فالأمة تنزلق داخل نفق مظلم لا تدرى إلى أين يقودها هذا الانزلاق ،هذه الظروف تضغط علينا بقوة وإلحاح أن نتبنى مبدأً أو أسلوبًا أو تنظيرًا فكريًّا ، لا أقول يخرجنا ، وإنما يعطينا الأمل فى الخروج ، ربما هذا الأمل يقوى الإرادات ، ويصحح النيات ويشحذ العزم ويحيى الهمم ؛ فينبض قلبُ هذه الأمة بقوة وتندفع الدماء الحارة فى عروقها ويستيقظ هذا المارد الذى طالت غفوته وينفض الكرى عن جفونه ، ويزيل تلك الأسمال الرثة البالية عن جسده ، ويستأنف مسيرته المباركة وتنعم الإنسانية بما حُرمتْ منه من جراء غفوته .

لماذا لم يكن هذا الكتاب عن عمر بن الخطاب ؟

ذلك لأن عمر بن الخطاب لم يعدْله وجود الآن ، عاش حينًا من الزمن وتعاطى مع زمنه ، وأبناء جيله ، ومرَّ بتجارب ومواقف ، وبدأ كأى شخص لا ذكر له، ثم أصبح ملء

السمع والبصر والفؤاد ، ووصل إلى قمة الدولة الإسلامية ، تزوج وأنجب وطعم وشرب وسعد واغتم ، وسارت به الحياة سيرتها المعتادة ، ثم طُعِن ومات وطواه الفناء فيمن يطوى .

إذن الحديث عن شىء فنى نوعٌ من العبثِ ، فأنت هنا تتحدثُ أو تكتبُ عن شىء لا وجود له ، شىء كان ولم يَعدْ له وجود .. وكثيرون يغفلون عن تلك البديهة ويبد دون الكثير من الوقت والجهد على أنفسهم وعلى القارئين ، فنجد البعض يكتب عن المتنبى أو الغزالى أو الجاحظ أو شوقى أو العقاد ، كل تلك الكتابات لم يصبْها التوفيقُ فى جانب كبير منها لأن كل هؤلاء قد ماتوا ، وحديثك عن شىء ميت لا جدوى منه .

وإنما حديثنا وكتاباتنا يكون عن الشىء الباقى الخالد من هؤلاء ، الذى بقى من المتنبى هو شعره ، الشىء الذى ينبض بالحياة بين يدى هو أدبه ، أما خلا ذلك فلا قيمة له.

سيقول البعض إننا لا نستطيع أن نفهم ونتذوق شعر المتنبى إلا بدراسة المتنبى نفسه .

أظن أن السؤال تضمن الجواب ، أنك تريد أن تفهم وتتذوق شعر المتنبى لا شىء آخر ، إذن أنت تتفق معى أن الهدف والمقصد والغاية شعر المتنبى ، وللوصول إلى تلك الغاية والهدف افعل ما تشاء ، ولكن ينبغى ألا تنسيك الوسيلةُ الغايةَ

ولو ظللنا نكتب عن الأموات لما بقى لنا وقت لنحيا كما أراد الله لنا . " ولكن النجاح فى الحركات التاريخية لن يسمى نجاحًا إذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد ، فإذا قيل إن حركة من الحركات التاريخية قد نجحت فمغزى ذلك بداهة أن الأفراد القائمين بها يذهبون وهى الباقية بعد ذهابهم ، ومن هنا يصح أن يقال إن الأريحية

أبقى وأنجح إذا هى اصطدمت بالمنفعة الفردية لأن ذهاب الفرد هنا أمر مفروغ منه بعد كل حساب سواء كان حساب الأريحيين أم حساب النفعيين "[1] .

لذلك فلا يعنينا من عمر إلا ما بقى من عمر على مرِّ التاريخ والأجيال وسيبقى إلى أن تغرب شمس هذا العالم الغروب الأبدى " والرجل العظيم لا يزال بعد موته ينبوع نور يتدفق . فليس أحسن من مجاورته شيئا .. نورا يضىء ، وكان يضىء ظلمات الحياة وليس هو من كواكب الأفق هو كما قلت ينبوع نور يتدفق بالحكمة، ومعانى الرجولة والشرف الكبير وهو الذى فى شعاعه أنسُ الأرواح وروح النفوس ومتعة الخواطر"[2] .

وهذا المتبقى من عمر هو ما صنع عمر ، ولو لم يبق ما لهجت به الألسنة فى أحلك اللحظات ، وأشد الظروف عسرة وكربة .

ولن نقف أمام كل ما بقى من عمر - فهذا خارج طوقنا - وإنما سنأخذُ ما يحتاجه أبناءُ زماننا ، ما يمكن أن نوظِّفه لشفاء علة ، أو جبر كسر أو إصلاح خطأ أو تقويم معوج أو توضيح غامض أو جلاء مبهم فى حياتنا الحاضرة ، إذن الحاضر وما يموج به من مشكلات وقضايا هو الذى سيحدد زاوية النظر أو الوجهة التى سننتهجها .

وينبغى لنا أن نبتعد - ولو مؤقتا - عن الرفاهية الفكرية ، أو الرفاهية البحثية فى التراث ، ألا نبحث لمجرد البحث ، وإنما ينبغى أن نتبنى أسلوبًا أو نظرية ، حينما نبحث قضية من قضايا هذا التراث فإننا نبحث ونفتش عن مرجع نرتكز عليه لتقييم وتقويم ظروفى الحاضرة أولا وقبل كل شىء ، لأعالج الأمراض الحاضرة على ضوء هذه (الروشتة) التى ذكرتها سابقا .

١- الحسين أبو الشهداء - تأليف : الأستاذ / عباس العقاد صفحة (١١).
٢- الأبطال - تأليف : توماس كارلايل - صفحة (٨).

فمثلا حينما أقوم بدراسة موقف من مواقف المسلمين الأولين ... أنا لا أسرد ما حدث ، فما حدث قد حدث وانتهى ، ولكنى أدرس ظروفى وأحوالى ومواقفى الحاضرة على ضوء موقفهم هم ، ... هل تصرفنا كتصرفهم هل نظرنا إلى الأمور كنظرتهم ، هل تعاملنا مع جزيئات حياتنا اليومية المعتادة والمستجدة كما تعاملوا هل ضحينا بكل شىء فى سبيل هدف سام نبيل كما ضحوا ؟ هل .. ؟هل ... ؟

أنا هنا لا أستعرض أحداث وأحوال ما مضوا ... لأن بفعلى هذا لم أغير شيئا ولم أضف شيئا ، سوى نوع من التكرار الممل السقيم ، وهذا خطأ يخطأ فيه الكُتـَّابُ وخطباءُ المساجد أو لنقل بعضهم ، ما يقولونه لاسيما فى المناسبات الدينية - وما أكثرها يقولونه كل آن وحين ، إما عن غفلة أو عن نية مخلصة تنقصها شجاعة نقد الظروف والأحوال الراهنة التى يعيشها المجتمع ، ويؤثرون السلامة على غيرها لأن نقد أحوال المجتمع قد تغضب القائمين على أمره ، ونقد أحوال الناس يضيف إلى هموهم الكثيرة همًّا أكبر .

العُمرية :

لتلك الأسباب رأيت أن يكون الكتاب باسم (العُمرية) ، وأقصد به هذا المبدأ أو العقل الجامع أو المزاج الذى يملك عمر ويستحوذ عليه ويسيِّره ويدفعه دفعا واعيا ليفعل هذا ولا يفعل هذا ، ويقول هذا ولا يقول هذا ، غير ناظر بعد ذلك إلى ما يترتب على ذلك من ضررٍ أو نفعٍ ، أو لنقل إنه لا يأبه ولا يكترث بعد ذلك بالنتائج مهما كانت ، وهذا ليس نوعًا من التفكير لأن التفكير لا يفوته أن يوازن بين البدائل ويربط النتائج بالمقدمات ويقارن بين النفع والضرر ، ويفاضل بين المكسب والخسارة .

قل هى جسارة طبع ، مع قوة نفس ، مع صلابة رأى مع مضاء فكر مع يقظة ضمير مع نفاذ عزيمة مع صفاء روح مع صدق نية .

هذا المزاج النفسى والعقلى والعصبى صادف أو قل كان على وفاق واتفاق من نوع ما مع عقيدة جديدة جامعة لكل الأدوية التى تعالج أدواء الإنسانية ... مع نبى جمعَ بين جنبيه أشرف وأنبل وأسمى وأرقى وأرق الصفات التى مكنته من لمس شغاف النفس الإنسانية والاتصال بها من أيسر وأقرب وأوضح السبل ، فإذا النفوسُ الضالةُ هُديتْ ، وإذا الأرواحُ الحائرةُ اطمأنتْ، وإذا الضمائرُ الميتة تسرى فيها حميّا الحياة ، وإذ القلوبُ الجلمودُ ترقُ وتذوبُ تصدعًا وخشوعًا ، ويستوى القوم أسوياء ، مالكين أزمَّتهم وأزمَّة العالمين مع مجتمع خام ظمآن إلى العدل متلهف إلى أن تمزقَ من فوق جسدِه الواهنِ العليل أكفانُ الجمودِ ، وسرابيلُ الجمودِ والتخلفِ ، ويزاحَ عن آذانه وعيونه أختامُ القهرِ والحرمانِ .

مع عالم يستمدُ دينه وشريعته من القوة الغاشمة ، ويفرض هواه على الشعوب المهيضة المستعبدة التى تقتات ليل نهار بالذلِ والقمع والاضطهاد .

- عقيدة .
- نبى .
- مجتمع .
- عالم .

عناصر وعوامل تجمعت عن اتفاق ووفاق مع تلك النفس ، وخلقت كائنا أو ساعدت فى إعادة صياغة وتشكيل كائن ، أقل ما يقال فيه إنه من أعظم العظماء الذين عرفتهم الإنسانية .

هدف العُمرية :

والعمرية لا تهدف إلى أن ترضى الضمير الإنسانى ، فتلك غاية هينة يتوصل إليها الكثيرون ، من خلال استفراغ الجهد والطاقة ، حتى ولو لم تصب نجاحًا أو توفيقًا أو تصل إلى غاية ، هذا فى حد ذاته نوع من الجهد والطاقة .

محبوس أو مكظوم لم يُطْلَقْ ، ولم يُحَرَّرْ ، ولم يتحْ له الفيضان ليسير إلى غايته محققا أهدافه ... ففى لحظة إطلاق هذا المخزون تتنفس الضمائر الصعداء ... أما النجاح والتوفيق فراحة أخرى .

(العمرية) تخالف هذا النمط المعتاد والمعروف لبنى الإنسان ، (العمرية) تجاوزت هذا الأمر ، وتلك الدرجة ، وأصبحت هى الرقيبة على الضمير وهى الباعثة فيه القوة والنشاط إن أصابه شىء من الضعف والفتور .

وصاحب (العمرية) لا يستطيع أن ينهنه من غلوائها ، أو يخفف من اندفاعها أو يحد من سورتها ، لأنها هى التى تملى بواعث التصرفات ودوافع الأفعال .

" إن الرجل الكبير لا يفخر بأخلاقه قط ، بل هو لا يسأل نفسه : أهى مخلصة أو بعبارة أخرى أقول إن إخلاصه غير متوقف على إرادته فهو مخلص على الرغم من نفسه أراد أم لم يرد " [1] .

لذلك فتلك التصرفات والأفعال تدهش أبناء الزمن الذين عاصروها وتدهش أبناء كل الأزمنة التالية لها .

وأظننى لا أتجاوز القصد وأتعدى الحد لو قلت إن أشد المندهشين من تلك الأفعال والأقوال هو صاحب الطبيعة العمرية نفسه !! .

١- الأبطال - تأليف : توماس كارلايل - (٦٠).

وكأنه شخصان ... شخص يخوض فيما يخوض فيه الناس حوله وشخص آخر يرى ما لا يرى الناس ، ويتصرف ويفعل لا كما يتصرف ويفعل الناس حوله . وليس هذا ما يسمى (بالانفصام الخلقى) .

فالانفصام شخص يتصرف تصرف شخصين ، كلاهما متدابر وخلاف الآخر هذا جهة اليمين وذلك جهة اليسار ... ولكن الأمر هنا أن الشخص الثانى يعرج فى مدارج الكمال والسمو والرقى ، يضع أحد قدميه إلى نهاية ما تطمح إليه النفس الإنسانية من تحقيق العدل والخير والحق ، والأخرى يتجاوز بها المطمح الإنسانى بمراحل كثيرة .

obeikandl.com